

فصل

فى ذكر ملوك متفرقة من العرب

من ملوك العرب عمرو بن لى بن حارثة من ولد كهلان بن سبا كان ملكاً فى الحجاز وكان شايع الذكر فى الجاهلية وإليه تنسب خزاعة فيقال إنهم من سلالة وكان جلوسه على سرير الولاية سنة مائتين وسبع للمسيح وهو أول من أتى بالأصنام إلى مكة أتى بها من أرض الشام وأقامها فى البيت الحرام ودعا الناس إلى تعظيمها والتقريب إليها والتوسل بها إلى الله تعالى وكان منها صنم على صورة رجل يقال له إساف وصنم على صورة امرأة يقال له نائلة وضعها عمرو على الصفا والمروة وكان يذبح عليها تجاه الكعبة وكان عمرو ينكر بعث الأجساد وهو القايل *

حياة ثم موت ثم حشر حديث خرافة يا أم عمرو

وكان ملكه ثلثاً وثلثين سنة انتهى ومن ملوك العرب ملوك جرهم وأشهرهم مضاض بن عمرو بن الحرث الجرهمى وكان قد خرج بقومه من اليمن إلى الحجاز فنزل بأعلى مكة وخرج معه السميدع بنى قطور فنزل بأسفلها ولبث كل فريق فى مكانه حيناً من الدهر فوقع الخصام بين جرهم وقطور وانتشبت بينهم الحرب فاقتتلوا اقتتالا شديداً وقُتل السميدع فسلم قومه أمرهم إلى مضاض واصطلحوا فسرّ مضاض بذلك ونحر الجزر وطبخ الأطعمة للناس فدعى ذلك المكان بالمطابخ وفى ذلك يقول مضاض:

فأصبح منا وهو حيران يجزغُ	ونحن قتلنا سيد القوم عنوةً
بها ملكاً حتى أتنا السמידع	وما كان ينبغي أن يكون سواءً ونا
وعالج منا غصة تنجرع	فذاق وبالا حين حاول ملكنا
نقاتل عنا من أتنا ندفع	ونحن عمرنا البيت كُتًا ولاته
ولم يكُ حى قبلنا فيه يطمع	وما كان ينبغي ذاك فى الناس غيرنا

وأقام مضاض بقومه فى مكة ما شاء الله من الزمان حتى خرج عمرو بن عامر بن ثعلبة الخزاعى من اليمن فأرسل ابنه ثعلبة إلى الجرهميين يطلب النزول عندهم إلى أن ترجع رُواده من الشام فيرحل إلى حيثما أصابوه له من الأرض فأبت جرهم ذلك إباءً شديداً واستكبروا فى أنفسهم وقوالوا والله لا نحب أن تنزلوا فتضيقوا علينا مراعيناً ومواردنا فارحلوا حيث شئتم من البلاد فأغار عمرو الخزاعى عليهم والتقوا به فاقتتلوا ثلاثة أيام فكانت الدائرة على جرهم فانهزموا ولم يفلت منهم إلا الشريد وكان مضاض قد اعتزل عن الحرب لأنه لم يكن له رأى فى ذلك ولما ظفرت بهم خزاعة رحل بأهل بيته ونزل فى ما يلى مكة عن بعدٍ من القوم ونادى عمرو فى قومه أن من وجد جرهمياً فى جوار الحرم فدماه مباح له وفى تلك الأيام نزع إبلى لمضاض فخرج فى طلبها حتى وجد أثرها وقد دخلت إلى مكة فمضى على الجبال من نحو أجياد حتى وقف على أبى قبيس فرأى إبلة تنحر فى مكة ولا سبيل له إليها فولى منصرفاً إلى أهله وأنشأ يقول:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا	أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامرُ
ولم يتربع واسطاً فجنوبه	إلى المنحنى من ذى الآراكة حاضر
بلى نحن كُنا أهلها فأبادنا	صروف الليالى والجدود العوائر
وأبدلنا ربى بها دار غربة	بها الذيب يعوى والعدو المحاصر
أقول إذا نام الخلى ولم أنم	إذا العرش لا يبعد سهيلٌ وعامر
فنحن ولالة البيت من بعد نابتِ	نطوف به والخير إذ ذاك ظاهر

وأبلى جدي خير شخص علة	فأبناوه منا ونحن الأواصر
وأخرجنا منها المليك نسيفه	كذلك بين الناس تجرى المقادر
فسحت دموع العين تبكى لبلدة	بها حرم آمن وفيها المشاعر
وبطن منى أمسى كأن لم يكن به	مضاض ولا من حى عمر وعمائر
فهل فرج يأتي بشيء نخبه	وهل حذر ينجيك مما تحاذر

انتهى * ومن ملوك العرب زهير بن حباب بن هبل بن عبد الله بن عذرة الكلبي وكان يقال له الكاهن لصحة راية غزا غزوات كثيرة وكان ميمون النقيبة سعيداً في غزواته وفد على إبرهة الأشرم الحبشى بنجد فأكرمه وفضله على من أتاه من العرب وقتله إمارة بنى بكر وتغلب فأقام بهم وأصابتهم سنة جدية فثقل عليهم ما كان يطلبه منهم فخلعوا طاعته وانتشبت بينهم الحرب وجرت لهم وقائع يطول شرحها ثم جمع زهير بنى كلب وأحلافه من القبائل وغزاهم على ماء يقال له الحنى فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم انهزمت بكر وقاتلت تغلب بعض القتال فانهزمت أيضاً وقتل منهم خلق كثير وساقوا أموالهم ونساءهم وحدث في أيام زهير أن بنى بغيض بن ريث بن غطفان خرجوا من تهامة فتعرضت لهم قبيلة من مذحج فقاتلوهم واستظهت غطفان وأصاب غنائم كثيرة فاعتز القوم وقالوا والله لتتخذن حرمًا مثل حرم مكة لا يقتل صيده ولا يعضد شجره ولا يهاج عايذه وأقاموا على بنائية رجلاً منهم يقال له رباح بن ظالم وبلغ ذلك زهير بن حباب فقال والله لا يكون ذلك أبداً وزحف بقومه حتى وقع على بن غطفان فقاتلهم وظفر بهم فقتل وسبى ونهب كثيراً ثم من على غطفان فرد النساء واستاق الأموال وانصرف إلى دياره وهو يقول *

ولم تصبر لنا غطفان لما	تلاقينا وأحرزت النساء
ولولا الفضل منا ما رجعتن	إلى عذراء شيمتها الحياء
فكم غادرتنا من بطل كمي	لدى الهجاء كان له غناء
فدونكم ديوننا فاطلبوها	وآثارا ودونكم اللقاء

وأنا حيثُ لا يخفى عليكم	ليوثٌ حيثُ ينصهر اللواءُ
فخلى بعدها غطفان ريثًا	وما غطفان والأرض الفضاء
وقد أضحى لحي بنى حبابٍ	فضاءُ الأرض والماء الرواءُ
نفينا نخوة الأعطاء عنا	بأرماح أسننتها ظمَاءُ
ولولا صبرنا يوم التقينا	لقينا مثلما لقيت صداءُ
غداة تعرّضوا لبنى بغيضٍ	وصدق الطعن للحمقى شفاءُ
وقد هربت حذار الموت قينٌ	على آثار ما ذهب العفاءُ
وقد كنا رجونا أن يمدّوا	فاخلفنا من القوم الرجاءُ

وكان زهير من المعمرين في العرب عاش عمرًا طويلًا وغزا غزواتٍ كثيرة حتى كان قلّ ما تمضى عليه سنةٌ لا يغزو فيها * ومن ملوك العرب كليب بن ربيعة بن الحرث بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب كان سيد بني ربيعة فكانوا لا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره وكان عزيزًا مهيبًا بينهم لا توقد نارًا مع ناره ولا ترد إبلًا مع إبله ولا تحتبى أحد في مجلسه ولا يتكلم إلا أن يسأله وفي ذلك يقول أخوه المهلهل *

نُبّهتُ أن النار بعدك أوقدت	واستبَّ بعدك يا كليب المجلسُ
وتحدّثوا في أمر كل عزيمةٍ	لو كنت حاضر أمرهم لم ينبسوا

وبغى كليبٌ على قومه فصار يحمي عليهم مواقع السحاب فلا يرعى حماه ويجير الوحش فلا يصادج وكان يلقي كلبًا صغيرًا في أطراف مراعيه فإذا أقبل الرعاة سمعوا صوته فتاخروا عنها وكان كليب المذكور اسمه وائل فكانت الرعاة إذا سمعت صوت كلبه تقول هذا كليب وائل فلما كثر استعمال ذلك صار لقبًا له وما زال كليبٌ في عزته وزهوه حتى قتله جساس بن مرّة البكرى كما سيأتى في ذكر وقائع العرب * ومن ملوك العرب زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن الحرث العبسي وكان ملكه سنة خمسماية وأربع وستين للمسيح وكان له أتاوةٌ على بني

هوازن يأتونه بها كل سنة إلى عكاظ في أيام موسم الحج في الحجاز فلما كان بعض
السنين أتته امرأة من بنى رهيس بن بكر من هوازن بشيء من السمن فلم يرضه
وكان في يده قوس فدفعها بها في صدرها فاستلقت على قفاها وانتهك سترها
فغضبت هوازن من ذلك وأضمرت عليه السوء وكان ابنه شاس قد أقبل في تلك
الأيام من عند النعمان بن المنذر ومعه قطيفة حمراء وطوبى قد أهداها له فورد ماءً في
الطريق عند الظهيرة وعليه خباء لرياح بن الأشل الغنوى فأساء شاس الأدب
وزجره الغنوى فلم يزدجر فرماه بسهم فقتله ودفنه في رملة هناك وأحرز ما كان
معه في بيته وغمض خبره عن أبيه زماناً حتى خرجت امرأة رباح بشيء مما كان مع
شاس تبيعه في سوق عكاظ وكان لزهير أرساد على ذلك فأعلموه به فتجهز لإدراك
ثأره من بنى غنى وقال يرثيه *

بكيت لشاس حين خبر أنه	بماء غنى آخر الليل يشرب
لقد كان مأتاه الردى بجثفه	وما كان لولا غرة الليل يسلب
قتيل غى ليس شكل كشكله	كذاك لعمرى الحين للمرء يجلب
سأبكي عليهش ما بقيت بعبرة	وحق لشاس عبرة حين تسكب
إذا سيم ضيماً كان للضم منكرًا	وكان لدى الهيجا يخشى يرهب

ثم أغار زهير على الغنوين فاتفقت هوازن مع خالد بن جعفر الكلابى وبنى
عامر على قتال زهير لما كان في أنفسها منه واقتتلوا جميعاً فاعتنق زهير وخالد واعتراكا
طويلاً على الأرض فنادى خالد بقومه فأقبل عليه جندح بن البكاءش وشرب
زهيراً بسيفه ضربة شق بها رأسه ثم ركبوا وتركوه فأخذته أصحابه ومات بعد أيام
وكان ابنه ورقاء قد ضرب خالد بن جعفر ضربة بسيفه فلم تؤثر فيهش شيئاً فقال في
ذلك *

رأيت زهيراً تحت كل كل خالد	فأقبلت أسعى كالظليم أبادر
ويا ليتنى من قبل أيام خالد	ويوم زهير لم تلدنى ثماضر

فَطِرْ خَالِدٌ أَنْ كُنْتَ تَسْتَطِيعُ طَيْرَةً وَلَا تَقْعَنُ إِلَّا وَقْلَبَكَ حَاذِرُ
أَتَتْكَ الْمَنَايَا أَنْ بَقِيَتْ بِضْرِيَّةٌ تَفَارِقُ مِنْهَا الْعَيْشَ وَالْمَوْتَ حَاضِرُ

وبعد قتل زهير بن جذيمة جرت وقائع كثيرة بسببه لم نتعرض لذكرها خوف من الإطالة وكان ملكه ثلاثين سنة * ومن ملوك العرب قيس بن زهير بن جذيمة العبسي كان من دهاة العرب وكان يقال له قيس الرأي لصحة رأيه استولى على ملك أبيه زهير بعد قتله في بني عامر ونهض لإدراك ثأره فاستجاش أحلافه وغزا العامريين فجرى بينهم قتالٌ شديدٌ ولم يُصب حاجته فثنى عنهم وأقام في دياره ما شاء الله حتى وقعت الحرب بين بني عبس وفزارة بسبب سباق الخيل كما سيأتي فلحق ببني النمر بن قاسط وكان قد افتقر وسات حاله فلما تمكّن بينهم قال لهم يا بني النمر بن قاسط قد علمتم أنني رجلٌ أنوفٌ غيورٌ ولكنني لا آنفٌ حتى أُظلم ولا أغار حتى أرى فانظروا لي امرأةً من نساياكم قد أدّبها الغنى وأذلها الفقر فأصابوا له امرأةً كما أراد فأقام بينهم وتنصرو ما زال عندهم إلى أن مات على دين النصرانية والله أعلم *